

الأدب ... ما هو؟

بقلم أحمدر السائب

المدرس بكلية الآداب بالجامعة المصرية

١

قد يكون من الغريب ، بعد هذا التاريخ الأدبي الطويل ، وفي هذه النهضة الأدبية الحديثة ، أن نعرض للتعريف بالأدب أو نحتاج إلى تحديده من جديد بعد ما قال فيه السابقون ما قالوا ، وناقش حوله المعاصرون منذ عهد قريب . حقا قد يبدو ذلك غريبا أول الأمر ، ويحمل الناس على التبرم بالباحثين ، فيسألون أنفسهم : ما ذا يعنينا من هذه التعاريف ما دمنا نقرأ النظم والنثر ، ونظفر منهما بهذه اللذة العقلية والشعورية ؟ أليست هذه الحدود أنواعا من عبث العلماء أولا ، ومن تعقيبهم الأدباء ثانياً تعقبا يبدل على فراغ وفضول ؟

أجل ، لست أنكر أن الأدب هو الشعر والنثر ، ولست أنكر أن أكثر الناس يكتفون بهذا القدر من تعريف الأدب وتصوره ، ولكن هذا نفسه هو الذي يدعوني إلى القول في تحديد الأدب وبيان طبيعته وما يفرقه من العلم ويصله بالفن ، وبالفن الرفيع خاصة ، فلقد انقضت فيما أعلم هذه الفترة التي كان الناس يكتفون فيها بالثقافة العامة ، ويقنعون بتصور الأشياء تصورا إجماليا ، وولدت عندهم الحاجة إلى الرقي ميلا إلى التعمق في فهم الأمور وبحسبها ليصلوا إلى تعرف طبيعتها وخواصها ، وما عسى أن يصلها بالحياة الاجتماعية مؤثرة أو متأثرة .

هذا شيء ، وشيء آخر يحتملني على هذا التحديد الأدبي أو محاولته ، ذلك أن كلا من الأدباء المنشئين والنقاد كثيرا ما يختلفون حول نص من النصوص :

أهو أدب حقا؟ وفي أى نوع من الأنواع أو درجة من درجات الأدب يمكننا أن نضعه؟ وأخيرا ما المقاييس النقدية التى تحكم فى نقد هذا النص ويان قيمته؟... وأمر ثالث يحملنا على تقريب هذه الصورة الأدبية إلى الأذهان، فلو سألت شخصا عن تعريف الأدب، وأجابه بأنه ماثور الشعر والنثر، ثم سألته: لم أثر هذا الشعر وذاك النثر... اضطرب، وأنى بكلام عام، غير محدود، وغير خاضع لنظام على مفهوم... وعلى أية حال فاقى أشعر بحاجة هؤلاء الناشئين من الأدباء والنقاد إلى إيضاح طبيعة الأدب وعناصره، وسأحاول فى هذا البحث أن أقرب إلى الأذهان ماذا يراد بكلمة (أدب)، معتمدا فى ذلك على أهم ما قاله السابقون والمحدثون، ثم على تحليل النص الأدبى وتفهم روحه وخواصه، غير أنى أرجو من القراء أن يصبروا على قليلا إذا شعروا بالاطالة، فلعل الموضوع نفسه يستحق منهم صبرا طويلا.

- ١ -

ما الأدب؟

(١) سأترك الكلام فى اشتقاق الكلمة وأصلها الأول، وأتناولها من قريب؛ فقد كانت تدل فى القرن الهجرى الأول على معنيين اثنين: أحدهما خلقى، والثانى تعليمى. ويستدل المؤرخون على هذا المعنى الخلقى بالآثر المشهور: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، إذ المراد أنه نشأ نشأة فاضلة تقوم على الصدق، والحلم، والصبر وغيرها من الفضائل الخلقية؛ ومن ذلك ما سمي ابن المقفع كتابه «الأدب الصغير»، و«الأدب الكبير»، لاشتمالها على هذه الأصول والنظريات التى يصبح من تمسك بها أدبيا، أى فاضلا ذا خلق كريم.

ولكن هذا المعنى الخلقى لا يلائم تماما المعنى الذى نريد من كلمة أدب، حين نطلقها فى باب الفن أو النقد، بل ربما كان يناقضه، فليس من شك بين المتأدين أن أهاجى جرير والفرزدق أدب، وأن خربيات وغزليات أبى نواس أدب، وأن ذلك النوع المكشوف من الآثار الغزلية أدب... ولكنه مع ذلك مرفوض.

فى باب الأخلاق الفاضلة لا ينطوى تحت المعنى الخلقى الذى أشرنا إليه ، فلنترك ذلك ، إذا ، ولنبحث فى غيره .

(٢) وأما المعنى الثانى فقد مرت عليه أطوار شتى فى تاريخ الآداب العربى انتهت به إلى هذا التعريف الذى ذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، حيث قال فى خصل تحت عنوان علم (الآداب) مانصه : « ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الآداب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف .. »

ومن الواضح أن هذا ليس تعريفاً للآداب بمعنى هذه النصوص التى ندرسها وننشئها شعراً ونثراً ، وإنما هو فى الواقع تعريف لما يسمى التآدب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الآداب ، ولفهمه ، ونقده ، وأما الآداب بمعناه المراد هنا فليس تعريف ابن خلدون منه فى شيء ، وإن كان يتشبه به بعض المحدثين .

(٣) ويقول اميرس Emerson الكاتب الأمريكى المعروف : « الآداب سجل لخير الأفكار ، وهذا التعريف أو الوصف جامع غير مانع كما يقول المناطقة ، فإنه يتناول الآداب وغيره ، أليست المسائل العلمية ، من هندسة وكيمياء ، معدودة من خير الأفكار ؟ ومع ذلك فلم يقل أحد إن الهندسة أو الكيمياء أدب ، على أن هذا التعريف لم يشر إلى هذا العنصر اللفظى ، وكيف يجب أن يكون ... فلنترك ذلك أيضاً .

(٤) ويقول بروك Brooke : « الآداب هو أفكار الأذكاء وعواطفهم مدونة بأسلوب يلذ القارىء » ، وهذا التعريف خير من سابقه ، لأنه أشار إلى جمال الأسلوب الأدبى ، ولكنه لا يزال مبهماً ؛ فهل يقبل الآداب جميع الأفكار والعواطف ، حتى الأفكار الهندسية والطبية ، وحتى العواطف الشخصية ، والآلية ، والوضعية ؟ أما الأفكار العلمية فلن تتراعى فى الآداب وتحتل مكاناً ما وإن كانت تمسه من بعيد . وأما العواطف التى أشرنا إليها فهى موضع كلام كثير ، على أنها ليست من موضوع الآداب الرفيع على كل حال .

(٥) وهناك إجابة للاستاذ Sainte - Blave الكاتب والناقد الفرنسى المشهور عن سؤال يتصل بسؤالنا اتصالاً مباشراً : « ما الآديب ؟ » قال : « الآديب (٣ - صحيفة دار العلوم)

هو الكاتب الذى يغنى العقل الانسانى، ويزيد ثروته، ويعينه على التقدم، وهو الذى يستكشف الحقائق الادبية، ويزيل ما حولها من الشك والغموض، وينتقد إلى أعماق قلب الانسان فيستخرج منه العواطف الخالدة في حين يظن الناس أن ليس هناك ما يكشف في هذه المنطقة. وهو الذى يبرز أفكاره وحقائقه في صورة دقيقة صحيحة جميلة معقولة، وهو الذى يخاطب الناس بأسلوب هو أسلوبه الخاص ولكنه أسلوب جميع القراء، أسلوب قديم وحديث معا، صالح لكل زمان ومكان.

وإن نحن أردنا استخلاص تعريف للأدب من كلام الأستاذ سانت ييف هذا، كان التعريف: «الأدب هو الأسلوب الصحيح الجميل الذى يصور الحقائق الادبية، والعواطف الانسانية». وعندي أن هذا التعريف يعد مناسباً وإن كان أقرب إلى تمثيل الأدب في أسمى درجاته حتى ليعده بعض النقاد مانعاً غير جامع. وهناك كلام كثير لعلماء العرب ونقاد الغرب في هذا الموضوع: لا يعدو أن يكون وصفاً للأدب لا يمكن الاعتماد عليه في بحثنا كثيراً. إلا أننا نشعر أن ما أورده من مقتبسا من آثار الكتاب يكفى لإثبات حقيقة علمية هي صعوبة تعريف الأشياء في دقة وكمال، لاختلاف الناس في تصورها. وفيما يطلبون منها تحقيقه، متصلاً بأعمالهم ومذاهبهم العلمية والفنية. على أننا مع ذلك رأينا تعريفين للأدب يقف عندهما المحدثون من النقاد: أحدهما أن الأدب ماثور الشعر والنثر، والثاني هو ما استخلصناه من كلام الأستاذ سانت ييف السابق الذكر.

— ٢ —

ولكنى لن أقف بالقارىء عند هذه الحدود التى انتهى إليها السابقون والمعاصرون من أبحاثهم الخاصة، وصارت بذلك ملكاً لهم، وهم أقدر على فهمها وتصورها إذ كانت بذلك نتيجة تجاربهم ودراساتهم؛ بل لا يعنينى في الواقع ذكر هذه الرموز اللفظية التى تكون ما يسمى بالتعاريف، بقدر ما يعنينى فهم طبيعة الأدب، وأسلوب تكوينه، وصلته بالنفس الانسانية... فتنى يسمى النص أدباً؟ لا يمكننا أن نعد المحادثة ولا الأخبار العادية أو الصحافة أدباً.

وسبب ذلك أننا نقرأ وهائم تنصرف عنها ولا نعود إليها ثانياً ، إذ أن النص الأدبي يمتاز بتردد الناس على قراءته واعتباره متعة نفسية يحرض القارئ على الرجوع إليها كثيراً لتغذى فكره وشعوره ، ومعنى ذلك أن الأدب يمتاز بصفة الخلود . ولكن المسألة لا تزال في حاجة إلى الإيضاح ، أليست كتب الهندسة والجبر والفلسفة تحتوى حقائق خالدة لا تبلىها الأيام ؟ أليس يجد الانسان فيها دائماً مادة يستعين بها في شتونه الحيوية كلما أراد ؟ هذا حق لا شك فيه . . . ومع ذلك فلم يقل أحد إن كتب الهندسة والجبر من الأدب في شيء . . . فكيف الخلاص ؟

حقاً إن هذه الكتب تحوى حقائق خالدة ، ولكن الكتب نفسها ليست خالدة بهذا المعنى السابق الذى وصفنا به الأدب ، فمن الممكن أن تؤخذ هذه النظريات والمسائل العلمية الخالصة وتدوّن في صور أخرى وأساليب عدة ينصرف إليها الناس مستغنين بها عن الكتب الأولى التى كثيراً ما تبلى وتنسى ، وهنا نرى أن الحقائق في ذاتها خالدة ولكن الكتب تموت ، فمن منا اليوم يقرأ (إقليدس) في الهندسة مثلاً ليمتع نفسه أو حتى ليدرس النظريات الهندسية دراسة علمية ؟ ولكن كم منا اليوم من لا يزال ، وسيبقى دائماً ، يقرأ أمراً القيس ، وزهيرا ، وجريرا وأبا نواس ، والمتنبى والمعري ؟ والمتعلمون عامة يظفرون بكتب في الجغرافيا والتاريخ والهندسة والطبيعة تنسخ ما قبلها من الكتب وتقضى عليها ما دامت الموضوعات واحدة والحقائق هي بعينها . وإذا ، فليس من الكتب الأدبية ذلك النوع المعرض للنسيان والنسخ بعد حين . والذى نفهمه من ذلك أن هناك ميزة أخرى تكسب ديوان الشعر ، أو القصيدة ، أو الرسالة أو الكتاب صفة الخلود التى نتحدث بها . . . تلك أن يكون الكتاب نفسه ذا قيمة خالدة ، فهناك فرق بين الحقيقة الخالدة التى هي موضوع الكتاب العلمى ، وبين القيمة الخالدة التى هي خاصة الكتب الأدبية .

ما هذه القيمة الخالدة التى تتصل بالكتاب الأدبى وتمنحه ميزة الخلود ؟ يقولون إنها شخصية الأديب ، فالنص الأدبى يمتاز بأنه يصور ذوق الشاعر

أو الكاتب، ومزاجه، وفكره، وروحه، وخلقه، وخواصه المعنوية التي تفرقه من سواه، ولا يمكن أن تجتمع في شخص آخر هذه النسب والقوى؛ وبذلك نرى لكل أديب طابعاً يمتاز به آثاره ولا يمكن الاستغناء بشعر شاعر عن شعر زميله حتى في الموضوع الواحد رثاء أو وصفاً أو عتاباً فكل له ذوقه، وأسلوبه، وطعمه الذي يبعث في نفس القارئ آثاراً ممتازة لا غنى له عنها بسواها.

هذه الشخصية إذا (Personality) هي التي تفرق الأدب من العلم وتكسبه صفة الخلود، ولكننا نعود فنقول: ألسنا ننظر في الآثار العلمية بشخصيات متباينة، حين نقرأ كتب الفلسفة والقانون والطبيعة والكيمياء، تميز بطريقتي التفكير، والتعبير، وأسلوب البرهنة والاثبات؟ لا نذكر ذلك ولكننا نجد الشخصية الأدبية تمتاز بأمرين لا يتوافران في هذه الشخصية العلمية، أما أحدهما فهو جمال التعبير الأدبي ولذته، وأما الثاني فهو أن الشخصية الأدبية تكون قوية واضحة، وتكون عامة تصور نواحي النفس التي أشرنا إلى بعضها قبلاً، في حين أن الشخصية العلمية تقف عند الفكر، ودقته، وأسلوبه المنطقي في أغلب الأحيان. ونتيجة ذلك أن الأدب أدل على شخصية كاتبه من العلم...

كيف تكون القصيدة من الشعر أدل على الشاعر من المقالة العلمية على العالم؟ إذا استطعنا الإجابة عن هذا السؤال ظفرنا بهذا العنصر الذي يكسب الأدب ميزته الخالدة ويميزه من سواه... وذلك سهل يسير، فإذا وازنا بين هذه المقالة العلمية التي لا تحسبها أدباً، وبين القصيدة من الشعر ذات القيمة الخالدة، وجدنا في القصيدة شيئاً لا نجد في المقالة العلمية، هو العاطفة Emotion، فالقصيدة تقوم على العاطفة والمقالة تقوم على العقل، وهنا ننظر بهذا السر الذي نبحت عنه منذ حين، فهو الخاصة التي تنشأ عن العاطفة وتكسب الكلام ميزته الأدبية، وقدرته على الخلود، وتضعه في مكان بعيد عن العلم، وإذا بنا نرى كتباً علمية تغذي العقل وتسرعه وتضعه في مكان بعيد عن العلم، وإذا بنا نرى كتباً أدبية لم تنته عن هذه النقطة؛ فلا زلنا في حاجة إلى أن نسأل: لماذا كانت هذه العاطفة سبب خلود الأدب؟ وهنا نجدنا أمام إجابة من نوع التناقض الوهمي، فمن الغريب أن

العاطفة تخلد الآدب لأنها هي ذاتها ليست خالدة، وإنما تزول بسرعة ولا تبقى طويلا، فأنا أقرأ البحث العلمى فى الهندسة والمنطق وأعياه بعقلى وأترك مصادره وقلبا أعود إليه بعد ما أُنصِفَ إلى معارفى السابقة واتحد معها وصار جزءا من فكرى لا يكاد يزول، ولكنى أقرأ - مثلا - مرثية المعرى المشهورة :-

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى نوح بكٍ ولا ترثم شادٍ
فتشير فى نفسى عاطفة الأسى والحزن على هذا الكون تحطمه الأقدار وتذهب
بكائناته إلى غير عودة، وهذه العاطفة تشتد وتقوى حين قراءة القصيدة وعقبها،
ثم تأخذ فى القصور فالذهاب حتى تزول بعد مدة ما، ثم تدعونى الدواعى الفنية
أو الحوادث الاجتماعية إلى إثارة هذه العاطفة فى نفسى لوفاة صديق فأعود إلى
مرثية المعرى ذاتها فأقرأها لأظفر بهذه اللذة النفسية عنها، ثم تحبب العاطفة فأعود
إلى ميعتها عند أبى العلاء فى نفس هذه القصيدة، وهكذا دواليك... وهذا هو
معنى أن زوال العاطفة سبب فى خلود الآدب وتردد الإنسان على قراءته مرة بعد
أخرى. ويجب أن يلاحظ أننى لا أستغنى عن مرثية المعرى بمرثية البحرى أو
المتنبى أو أبى تمام أو ابن الرومى فكل له طعمه الخاص، ومذهبه الأدبى، وذوقه،
أو بعبارة مختصرة: كل له شخصيته الأدبية التى لا أجدها عند الآخر، وفوق
ذلك فقد لا أستغنى عن المعرى بالمعرى نفسه إذا ما كانت له فى كل مرثية خواص
فنية وأسلوب ممتاز، وذلك كثير الحدوث.

أف يكون من الغريب بعد ذلك أن نعد العاطفة أهم العناصر الأدبية ما دامت
تميز الآدب من العلم أولا، وتبعث فيه روح الخلد ثانيا. وتدل على شخصية الأديب
ثالثا؟.

أو يكون من الغريب أن نعرف الآدب بأنه الكلام الجميل الذى يدل على
شخصية صاحبه، أو الكلام الجميل القائم على تصوير العاطفة، أو الكلام الذى
يمتاز بهذه القيمة الخالدة؟

- ٣ -

وبعد فليس من سداد الرأي في شيء أن نبالغ في قيمة العاطفة ونهمل الحقيقة (Fact) وقيمتها الأدبية ، فالمفروض أن العاطفة هي العنصر أو الركن الأدبي الأول ، ولكنها لا تستطيع الحياة دون أن تتركز على حقيقة من الحقائق الفلسفية أو الاجتماعية التي تعد الهيكل العظمى للأدب وسنده المتين ، وإلا فما الذي يحملنا على السخط حين نقرأ للمعري قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقاً لسكان البسيطة أن يكونوا
تخطئنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك
غير هذه الحقيقة الواقعة وهي أننا الألعيب في يد الأيام تعبت بنا ما شاءت
وتفقدنا الحياة فلا نعود إليها ثانياً ؟

فالعاطفة السخط أو الحسرة على الخلق ، إنما قويت وحيّت لما ساعدتها حقيقة حيوية لا شك فيها ، فكانت الأصل الذي كسته العاطفة ثوباً سخاها متبرماً بدا لنا في أسلوب موسيقى جميل ، فأثار في نفوسنا سخطاً يشبه ما في نفس أبي العلاء ؛ وهكذا تتعاون الحقائق على خدمة الأدب والفن حتى لا يكون أحدهما فارغاً سخيفاً . وهنا نجد فارقاً بين الأدب وبين فن آخر يتصل به اتصالاً قوياً هو الموسيقى ، فالموسيقى الخالصة تتجه إلى العواطف مباشرة بهذه الألحان والأنغام فتثيرها ، ولكن الأدب يتجه إلى عواطفنا عن طريق العقل ، فيشبه النقش والتصوير والرسم من حيث أنها تجمع بين المعاني في الحقيقة ، والخواص الفنية المؤثرة الجميلة ، وسأترك ذلك على أن أعود إليه في بحث خاص حين أدرس الأدب وصلته بسائر الفنون الرفيعة ، وإنما أشرت هنا إلى ذلك ، لأصل منه إلى عنصر أدبي ثالث غير العاطفة والحقيقة ، وهو الخيال Imagination فإن الأدب يمتاز بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كما يفعل الرسم والتصوير ، وهو هذه الميزة يستطيع أن يثير العاطفة ، ويلهبها في نفوس القراء . وأشير عليك أن تدرس قصيدة البحترى في رثاء المتوكل :

مَحَلٌّ عَلَى (القاطول) أَخْلَقَ دَائِرَةً وَعَادَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ جِيْشًا تَغَاوِرُهُ
التي يقول فيها :

وَلَمْ أَنْسَ وَخْشَ الْقَصْرِ إِذْ رِيحُ سَرْبِهِ وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَاذَرُهُ
وَإِذْ صَبَحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهَتَّكَتْ عَلَى عَجَلٍ أَسْتَارُهُ وَسَتَاتِرُهُ
فإنك تجد هذا الشاعر يسلك في رثائه مسلكا بديعا فلا يأمرنا بالحزن أمرا ،
ولا يزعم هذه المزاعم التهويلية بتعظيم الخطب والجالجلة الفارغة ، وإنما يأخذ
يبدنا أو بعبارة أدق يأخذ بأبصارنا فيعرض علينا صورا حسية أليمة من
خراب القصر ، وتشئت ذويه ، ومن مهانة الخلافة ، وغدر الابن بأبيه ، إلى غير
ذلك مما نراه ، فنغضب نحن لهذه المشاهد كما غضب لما رآها ، وهذا هو ما نسميه
الخيال ، وهو عنصر يعد لغة العاطفة وأصدق وسيلة لتصويرها بالنسبة للأديب
ولا يثارتها في نفوس القراء .

كذلك المعرى عرض علينا مهزلة الحياة وجدالمات في داليتها المشهورة
بصور متتابعة من عمل الخيال هي أصوات ، وأجسام ، وقبور ، ونجوم ، وغيرها
حتى أبكى الناس جميعا .

وأخيرا ، كيف أنقل صورة نفسى إلى غيرى ؟ في نفسى الحقيقة ، تسيطر
عليها عاطفة ، يصورها خيال . . . فأنا للآن أديب صامت لا يعرفنى الناس
ولا أوثر فيمن حولى ، فلا بد إذا من وسيلة تصل بينى وبين غيرى بنقل هذه
العناصر النفسية وإذاعتها . . . تلك هي العبارة Diction أو (نظم الكلام) كما يقول
عبد القادر الجرجاني . والعبارة كما ترى وسيلة لا غاية ، ولكنها لا تقل في قيمتها
عن سائر العناصر الأدبية ، لأن القدرة على إثارة العواطف — هذه القدرة
التي هي وظيفة الأدب — تتوقف إلى درجة بعيدة على جمال العبارة . وتأليفها
تأليفا يجعلها مرآة صافية أمانة لما في نفس الأديب ، فكثيرا ما تعق العبارة
كأنها مليئا بالافكار ، جياشا بالعواطف ، وكثيرا ما تكتسب المعانى العادية
روعة أسلوبية تجعلها في درجة رفيعة من درجات الأدب السامى . ولعلك لم تنس
ما أورده في العدد السابق من خلاف حول اللفظ والمعنى ، وكيف أن أحيانا

رائعة الأسلوب، عادية الأفكار، قد فازت بنصيب كبير من التقدير والإعجاب، وإن لم ينفرد اللفظ بالجمال الفني كما أثبتنا ذلك في موضعه.

وبخلاصة هذا أننا نستطيع أن نحلل النص الأدبي إلى هذه العناصر الأربعة:

(١) العاطفة، وهى أهم العناصر وخصوصا فى أدب القوة الذى يمثله الشعر الغنائى تمثيلا واضحا، وقد تكون العاطفة فى درجة الحقائق فى مثل الخطابة والأبحاث النقدية والقصصية.

(٢) الخيال، وهو فى أكثر الأحيان يكون اللغة اللازمة لاثارة العاطفة كما رأيت فى مرثية البحترى، وكما هو الشأن فى فن الوصف.

(٣) الفكرة أو الحقيقة، وهى تعد عماد العاطفة وعونها على الخلود والسمو، وقد أصبح الأدب اللفظى الذى يخلو من الحقائق سخفا وعبثا لا يليق بالعتلاء غير أن الحقائق لا تذكر هنا جافة وإلا كانت الكتابة علما، بل تتوارى فى العاطفة وتقف خلفها شيئا ثانويا.

(٤) العبارة، وهى وسيلة لا تقل فى درجتها عن الغايات، بل يعدها بعض النقاد أهم الجميع إذ هى المعرض الأخير لسائر العناصر الأدبية.

— ٤ —

للأدب معنى عام بجانب هذا المعنى الخاص الذى ذكرنا فى هذه الصفحات، وبه يتناول جميع المعارف والعلوم التى تغذى النفس الانسانية وتقوى فيها مظاهر العقل، والوجدان، والارادة، وما أشبه هذا المعنى بما ذكره العلامة ابن خلدون فى تعريف الأدب وقد ذكرناه فى صدر هذا البحث. فحين يقول الناس: العلوم الأدبية أو الدراسة الأدبية العامة. إنما يقصدون بذلك كل ما من شأنه التثقيف النفسى المتصل بخدمة الحياة من ناحيتها الروحية. فالفلسفة أدب بهذا المعنى العام، والتاريخ أدب كذلك، ومثلهما الجغرافيا، والقانون، والدين، والفنون الرفيعة، وعلى هذا الأساس كان القسم الأدبى بالمدارس الثانوية والعالية منذ عهد قريب، وعليه قامت كلية الآداب بالجامعة المصرية وجمعت فى تكوينها بين هذه الأقسام المتشابهة فى دراستها، التى تنتهى إلى غاية واحدة من

تنظيم التفكير الانساني للوصول إلى الحقائق عن طريق الفلسفة ، ومن دراسة المظاهر العقلية والعاطفية في التعبير فهي الآداب بمعناه الخاص ، ومن آثار العقل والشعور في الحياة الاجتماعية فهي التاريخ ، ومن الصلة بين الانسان والطبيعة عن طريق الجغرافيا ، وهكذا نجد الدراسة القانونية تنظيما لحياة الانسان الاجتماعية ولصلاته مع بني جنسه ، والدين ينظم الصلة بين الخالق والمخلوق . ويقابلها كلية العلوم التي تعنى بالدراسة الخاصة بجسم الحياة الانسانية وما يقومها تلحق بها كلية الطب والزراعة والاقتصاد فهي متعاونة على حفظ كيان الانسان من حيث تنمية جسمه وحفظه من الآفات وتوفير أسباب الراحة والرفاهية ، وبذلك تنتهي الحياة إلى هاتين الشعبتين الآداب والعلوم ، ومن الآداب ما نسميه الفنون الجميلة ، وكان العرب يسمونها الآداب الرفيعة ، فهذا هو المعنى العام لكلمة الآداب ، ونجد في دائرة المعارف الاسلامية كلاما تاريخيا بهذا المعنى .

ألست قد خدعتك أيها القارئ الكريم حين زعمت لك أني قادم بك على تعريف الآداب وتحديدده ، فإذا بي ذاهب إلى التعريف بالآداب وذكر طبيعته وعناصره ؟ وأن هذا من ذاك ؟ ولكني سأترك هذه المرة : أ كنت تستطيع الاطمئنان إلى هذه الحدود الكثيرة التي تسمعها أو كنت تقدر على وضع حد للآداب من ابتكارك دون أن تسلك هذه السبيل التي قطعها أنت الآن في شيء من الحيلة كثير ؟ !

على أني معترف أنا جميعا قد وصلنا إلى نتائج إلا تكن يقينية يحسن السكوت عليها ، فهي على الأقل نتائج تحملنا على الكلام والبحث في بعض النقط والجوانب الأخرى التي تم ما أشرنا إليه هنا ، وإذ قد طال المطاف فأرجو أن يكون ذلك في العدد التالي .

أحمد السائب